افتتاحية العدد

إذا كان هناك حقل معرفي يمكن أن يعبر عن توجه هذه المجلة، فإنه حقل الدراسات الثقافية. هو حقل شديد التنوع والاختلاف، برغم أنه يضع الثقافة في مركز هذه الدراسات. وبسبب تنوعه المفرط، فقد كان هناك في البداية حذر شديد في تقبله داخل المؤسسة الأكاديمية، فالنظام الأكاديمي، أي نظام، يتحدد وفق معايير ثلاثة: الأول أن يكون له موضوع، والثاني، أن تكون هناك افتراضات أساسية تعزز المنهج الذي يتناول هذا الموضوع، والثالث أن يكون هناك تاريخ لهذا النظام نفسه. بهذه المعايير يصعب إدراج الدراسات الثقافية ضمن الدراسات الأكاديمية، فإذا كانت الثقافة هي المركز، فأي معنى يمكن أن نعطيه للثقافة؟ وأي زاوية يمكن أن نتناولها بها؟ وأي افتراضات أساسية متماسكة يمكن أن نشتغل عليها؟

لقد كانت هناك محاولات جادة للإجابة عن مثل هذه التساؤلات وغيرها حين تأسست في جامعة برمنجهام أول جمعية أكاديمية للدراسات الثقافية في العالم في العام ١٩٦٤، وقد استخدم القائمون عليها أدوات التحليل الماركسي، وحاولوا استكشاف العلاقات بين الأشكال الثقافية والاقتصاد السياسي، وكان دور لويس ألتوسير بارزا في هذا السياق، لكن مدرسة فرانكفورت التي تأسست بعد ذلك مضت أبعد من ذلك في تبني الأطروحات الماركسية في التحليل الثقافي بفضل تأثير أنطونيو جرامشي الذي كان كاتبا وقائدا للحزب الشيوعي الإيطالي.

ويعد ريتشارد هوجارت من أهم الأعلام في حقل الدراسات الثقافية، فهو الذي أسس مدرسة برمنجهام في الستينيات، وهو الذي كان يرى أن قراءة الفن يمكن أن تكشف عن شكل الحياة الاجتماعية، والفن وحده هو القادر على إعادة خلق حياة جديدة. ومن خلال دراساته شكل المسار الذي أخذته الدراسات الثقافية بعد ذلك.

لكن مصطلح الثقافة نفسه متسع، فتايلور في كتابه الثقافة البدائية يعرف الثقافة بأنها ذلك الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقوانين والفنون والقدرات الأخرى وعادات الإنسان المكتسبة بوصفه عضوا في المجتمع، ومارجريت ميد ترى الثقافة بأنها السلوك المتعلم أو المكتسب من المجتمع أو العشيرة، أما ريموند وليامز وهو أحد مؤسسي الدراسات الثقافية، فيرى أن الثقافة تتضمن تنظيم الإنتاج وبناء الأسرة وإنشاء المؤسسات التي تعبر عن العلاقات الاجتماعية أو تتحكم فيها، والخواص المميزة التي يتواصل أفراد المجتمع من خلالها مع بعض. وبهذا تبدو لنا الدراسات الثقافية أنها دراسة كل شيء تقريبا.

بهذا التصور تبدو الدراسات الثقافية لا موضوع لها، كما أنها تفتقر إلى مبادئ ونظريات خاصة بها، وعل ضوء هذا يطرح سؤال مهم: كيف يمكن لها أن تؤدي وظائفها المنوطة بها. إنها تفعل ذلك من خلال الاستعارة من حقول معرفية أخرى مثل العلوم الاجتماعية وعلم النفس واللغويات والنقد الأدبي ونظريات الفنون والفلسفة والعلوم السياسية. لكن المشكلة الكبيرة في هذه الاستعارة هو الكيفية التي ستنسجم بها آليات التحليل المستعارة في وسط جديد عليها، وهو الأمر نفسه الذي ينطبق على مصطلحات العلوم الإنسانية. وبهذا المعنى، فإنها حقل لا نظام له حتى ولو كانت أطروحاتها الأساسية منبثقة عن الماركسية، فكيف يمكن أن تجتمع معا الماركسية والبنيوية برغم أن لويس ألتوسير حاول أن يفعل ذلك، وكيف يمكن أن تتجاور السيميائية مع تيارات ما بعد الحداثة إلا بقدر كبير من الجهد. لكن الدراسات الثقافية فعلت ذلك، ورأينا في بعض الحقول الجديدة التي نشأت عن الدراسات الثقافية استعانة قوية بآليات تحليل ومفاهيم عدت النص أيا كان تعريفه عالما مغلقا على نفسه، بينما التوجه الأكبر للدراسات الثقافية أنها تفتح هذا النص على العالم.

اهتمت الدراسات الثقافية بالثقافة الشعبية، وعدتها هي المركز، وفي المقابل فإنها همشت من النص بوصفه مركزا للدراسة، أو أنها وسعت من مفهومه ليتجاوز ارتباطه باللغة، فأصبح هناك نص مرئي ونص مسموع، وهكذا.

وقد عد النص في الدراسات الثقافية مجرد أداة أو مادة خام ينطلق منها الدارس لفهم الأشكال المختلفة التي يتم إنتاجها في أي ثقافة، لكن الموضوع الأساسي للدراسات الثقافية ليس هو النص، لكنه الحياة الاجتماعية التي تتجلى في النصوص بالمعنى المتسع لكلمة نص. لقد رأت هذه الدراسات أن النص يوجد فقط ضمن شبكة من العلاقات التناصية، تؤدي فيها الكتابة والتمثيل representation والصراع أدوارا أساسية في هذه الشبكة. بكلمة أخرى، فإن الدراسات الثقافية تحاول أن تحتفظ بحالة توازن بين المنتج الثقافي والمنتج المادي والمنتج الرمزي والمنتج النصي.

لقد كان للمفكرين ذوي النزعة الاستعمارية، ومفكري ما بعد الاستعمار دور بارز في تطوير الدراسات الثقافية وبخاصة في بريطانيا بدءا من السبعينيات وما بعدها. بدأ هؤلاء ينظرون إلى سلوك الطبقة العاملة من الشباب، ويحللون هذا السلوك ثقافيا، فرأوا أسلوبهم في ملبسهم وتسريحة شعرهم ورقصاتهم بوصفها رمزا من رموز المقاومة. واتسع منظور الدراسات الثقافية ليشمل النساء والسود والطبقات الكادحة والمجتمع المقسم على أساس عرقي.

إن الدراسات الثقافية ليس جمالية. وليس من بين اهتماماتها الرئيسية الانشغال بطرق التعبير وبجمالية النصوص بأي معنى لكلمة النص. إن انشغالها الأساسي سياسي اجتماعي، وهي تهتم بالعلاقات الاجتماعية، بخاصة علاقة الطبقات فيما بينها، وتكوينات هذه الطبقات، ومسائل التنوع الجنسي، وهي الأطروحات الماركسية في الأساس، وبرغم أن كل الافتراضات الأساسية في الدراسات الثقافية تنبع من الماركسية، لكننا لا يمكن أن نقول أن كل الممارسات الثقافية ماركسية. وبهذا المعنى فإن الأيديولوجيا مفهوم مركزي في الدراسات الثقافية.

إننا نجد الدراسات الثقافية تجمع في حقل واحد السيميائية والماركسية والنظرية النسوية ونظريات العرق ونظريات ما بعد البنيوية، وما بعد الاستعمار والدراسات الاجتماعية والنظريات السياسية والتاريخ والفلسفة ونظريات الاتصال والاقتصاد السياسي ودراسات الترجمة وتاريخ الفن ودراسة المتاحف. وكل هذا يؤدي إلى فكرة مركزية في هذه الدراسات هي رفض التخصص، فهي بوصفها دراسة بينية ليست لها قائمة مصطلحات خاصة، ولا آليات تحليل منضبطة، ولا تماسك منهجي بالمعنى الذي نجده في كل حقل من الحقول السابقة على حدة. لذلك فإن هناك نقادا مهمين ومنهم من يتبنى الطرح الماركسي في النقد مثل تيري إيجلتون كانوا على حذر في تقبل هذا الحقل الجديد في الدراسات، أما هارولد بلوم فقد رفضها كليا، ولم يعدها دراسة أكاديمية، وهو يرى أن العدو الأكبر للقراءة النقدية الآن هو التدمير المرضي للدراسات الأدبية، واستبدالها بما يسمى الدراسات الثقافية.

مع ذلك، فإن المفهوم المركزي الذي تم تداوله في الدراسات الثقافية هو مفهوم العلامة، لكنه لا يستخدم فيها بالمعنى الضيق الذي يستخدمه النقد الأدبي، النقد الأدبي يركز على العلامة اللغوية، بينما تركز الدراسات الثقافية على العلامة بوصفها منتجا اجتماعيا يظهر في كل شيء، في الأزياء وطرق إعداد الطعام والإعلانات والأفلام وغير ذلك. ويتم التعامل مع العلامة من خلال عملية تمنحها دلالات معينة أطلق عليها إدوارد سعيد مصطلح التمثيل، ومن خلال التمثيل يتم إضفاء شكل ملموس ومحدد على الأفكار الأيديولوجية المجردة.

إذا أردنا هنا أن نحدد أكثر الحقول التي اعتنى بها النقد الأدبي في ربع القرن الماضي والتي تتصل اتصالا مباشرا بالدراسات الثقافية، فسنجد أن دراسات الاستشراق ونقد ما بعد الاستعمار ودراسات الهوية والنقد النسوي هي التي احتلت الحيز الأكبر من اهتمامات النقاد. لا يمكن هنا تجاهل الدور الذي قام به إدوارد سعيد وكتابه الاستشراق في فتح آفاق جديدة مهدت السبيل للحقول الثلاثة الأولى: دراسات الاستشراق ونقد ما بعد الاستعمار ودراسات الهوية. هنا يمكن أن نرصد أسماء كثيرة أصبحت أعلاما في هذه الحقول مثل هومي بهابها وجياتري شاكرافورتي سبيفاك وكورنيل ويست وغيرها، وكلها أسماء تمتد بجذورها إلى بيئات غير غربية مثل أفريقيا والهند وأمريكا اللاتينية، لكنه نشأت وترعرعت في الغرب، وكتبت أطروحاتها من داخله.

ما تزال الجامعات العربية تعامل الدراسات الثقافية بحذر، فلا توجد مراكز بحث تعنى بهذا الحقل المتنوع، وما يتم تسجيله من أطروحات جادة للدكتوراه في هذه الجامعات قليل. في حد علمي لا توجد دراسة إحصائية تحاول أن ترصد التوجهات الأساسية للبحث العلمي في حقلي اللغة والأدب داخل الجامعات العربية، ومن ثم يمكن أن نبحث فيها عن موقع الدراسات الثقافية، لكن الانطباع الأولي أنها تحتل موقعا هامشيا، على عكس ما نراه في الجامعات الغربية، فالدراسات الثقافية تتقدم بقوة في هذه الجامعات وتتنوع بحسب المشكلات الاجتماعية في كل بلد، فالدراسات الثقافية في أمريكا تركز على قضايا لا نجد لها حضورا بارزا في مجتمعات قديمة مثل المجتمع الإنجليزي أو الفرنسي، ومن ثم فإن الأسئلة المطروحة في كل بلد تختلف.

أحمــد صبــرة

رئيـس التحــرير

* الأفكار الأساسية في هذه الافتتاحية اعتمدت فيها على الكتابين التاليين:

- Cultural studies; by Ziauddin Sardar and Borin Van Loon

- What is Cultural Studies? A Reader; Edited by John Storey